وهكذا اختلف الموقف ، وبُعدَ التصوّر لدى الصعلوك ، فخالف بذلك الأنظمة القبلية ؛ واتخذ من فراره قياسا بطوليا لضمان نجاته وبقائة وبقاء أسرته ،والحفاظ على طائفته ؛ الأمر الذى أكمله بسبقه لرفاقه إلى المراقب التى اصطنعها على أعالى القمم الجبلية الناتئة ، استعداداً لرصد حركة ضحاياه من أبناء القبائل وأصحاب القوافل ، والمسارعة إلى الانقضاض عليها والنجاة منها بالغنيمة ، ولنا هنا أن نتأمل طبيعة هذ التضاد الجغرافى بين تلك القمم المنتقاة للصعاليك ، وبين الأودية والسهول التى اتخذها أبناء القبائل مجالا للرعى والسعى وراء وسائل حياتهم . إن المرقبة تظل رمزا من رموز الاستعلاء فى عالم الصعلكة ، كما تظهر دافعا للتغلب على القهر الطبقى المفروض على أبناء الطائفة ، وهى الوسيلة إلى تحديد مصدر رزقه الذى لم يشأ أن يحيد عنه بحال .

ومع هذا لم يبرأ الصعلوك من تصوير عفة النفس لا فى إطار البحث عن الغنيمة أو توزيعها ، ولكن فى سياق مختلف بين رفاقه ، على نحو ما صوره أيضا قول الشنفرى :

وإنّ مُدَّتِ الأَيْدى إلى الزَّاد لم أكُنْ .. بأَعْجَلهم إذْ أَجْشَعُ القَوْم أَوَّلُ .
وما ذاكَ إلا بَسْطَةً عن تَفَضُّل .. عليهم وكانَ الأفْضَلُ المتفضِّلُ
وأغدُو على القُوت الزهيد كما غَدا .. أَزَلُّ تَهَادَاهُ التَّنَائفُ أَطْحَلُ .

ألم تكن الغنيمة هى مقصد الصعلوك ودافعه الأول إلى الصعلكة وخلاصة مرماه من أجل توفير حياة كريمة لزوجته وصغاره، ثم ألم تكن تلك الغنائم ، وإن اختلف القياس هى الحرب نفسها ، تلك التى أبرزت منطقة التعفف الإنسانى فى إطار عالم الفرسان من غير الصعاليك على نحو ما صوره قول عنترة :

يُخبرك من شهِدَ الوقيعة أننى .. أغْشَى الوَغَى وأَعِفُّ عندَ المَغْنَمَ

ذلك أن الغُنم هنا أصبح غاية مطلوبة تعكس جوهر حركة الصعاليك فقاربوا من خلالها منطق الواقعية فى التصوير ، وواقعية التفكير ، وتأكيد مبررات منطق الخروج وضرورات السلب والنهب .